

الأن والآخر

العبور ما بين عالمين في رواية إغفاءات حواء محمد ديب

والحكايات الخرافية الجزائرية

عبد الحميد بورابو

كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر

سوف ننطلق في مداخلتنا هذه من النقطة التي توقفت عندها نجاة خدة في آخر فقرة كتبتها عن العمل الروائي لمحمد ديب، وهي عبارة عن تساؤلات أنتهت بها الباحثة أطروحتها الأكademie (دكتوراه من الدرجة الثالثة). وهي على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للموضوع الذي نحن بصدده معالجته في هذه التدوة. تقول : "عند ديب تعين الأغاني والأشعار قصّة الرواية لتعبر عن المنفي وعن البحث عن الذات وعن الجماعة حيث نجد "استعارات ملحة" مركزة وموجزة منبئه في النص مثل التجم، التار، الدام، الخ.

هذا الإيلاج للشعر في التثر -بصفة مستقلة عن شعرية النصوص الروائية- هل يعود إلى تشبع ديب بهذه الصيغة التعبيرية الحينة جداً في ثقافته الأصلية ؟ ألا يرجع فقط -أو إلى جانب ذلك- إلى الوجود المتنامي في المجال الأوروبي لنصوص "غير قابلة للتصنيف"، مما جعل البعض يسعى إلى هدم الحد الفاصل بين التثر والشعر ؟ إلى أي حد الشعر الذيبي، بقطع النظر عن وظيفته الاجتماعية وعن مضمونه، يتصل أو ينفصل عنها الشعر الشعبي بالعربية أو بالبربرية ؟ إنها أسئلة كثيرة تكشف عن تعقد مسألة لا نمتلك في الوقت الراهن الأدوات المناسبة للإجابة عنها، وهي مثلها في ذلك مثل التساؤلات المتعلقة بفضاءات الاتصال ما بين الثقافات توصلنا إلى المسألة الصعبة جداً

والتي تتعلق بالكيفية التي استطاعت فيها الخلفيات الثقافية الواعضة أن تكون عاكساً للصور *écran* وأن تصبح في نفس الوقت مادة لتشكيل الاستيهامات *fantasmes*، وبالكيفية التي يتم بها اندماج كل هذه المادة الثقافية في التصوير وهو يشتغل، بعبارة أخرى كيف يحول التصوير إلى سنن خاصٍ حيث التجسيدات التصويرية السردية التي تنتظم حول بعض العناصر (التار، الماء، الأرض ...) أو موتيفات (الحجر، الحائط، الصمت، الليل، الوردة ...) تؤدي إلى تشكيل معجم للرمزيّة الديبّية¹ [التسطير من وضعنا].

لقد أثرنا أن نفتتح مقالنا بهذا التصوير الطويل نسبياً لكي نرتکز على التساؤلات التي يسوقها فنونها مؤشرات تنظم مقاربتنا هذه للمسألة المطروحة في هذه التدوينة المتعلقة بعلاقة أعمال محمد ديب بالورث الشعبي، وقد قمنا بتسطير الجمل والعبارات التي لها علاقة مباشرة بما سنطرّحه هنا. وسنأخذ رواية "إغفاءات حواء" كنموذج نلجه لاستمد منه قرائن فرضياتنا.

أولاً : في أركيولوجيا نص الثقافة الجزائرية

إذا ما كان النص المستشهد به أعلاه والذي كتب في نهاية السبعينيات يشير إلى فقدان الأدوات المنهجية الكفيلة بتناول مسألة علاقة الثقافة الشعبية بالنص الديبي تناولاً مرضياً وشاملاً، فإن موقعنا الراهن بالنظر لتطور الأدوات المنهجية المتعلقة بمعالجة مثل هذه الظاهرة يدفعنا إلى المراجعة، وبالتالي إلى اقتراح موجهات منهجية لاشك أنها ستعين الباحثين المتهتمين بأدب محمد ديب على طرح قضية علاقته بأشكال التعبير الشعبي.

لقد سبق لنا في مداخلة ساهمنا بها في إحدى ملتقيات علم النص أن اقترحنا معالجة ظاهرة اشتراك رواية "إغفاءات حواء" مع آثار أدبية شعبية قديمة يعود بعضها إلى التاريخ القديم مثل الأسطورة، وبعضها إلى التاريخ الوسيط مثل الشعر القصصي الملحمي، ونضيف هنا الحكايات الخرافية التي

تعود بدورها إلى تاريخ قديم، لكنه تال مباشرة لعصر شيوخ الأساطير في الثقافة المغاربية الموروثة، وذلك انطلاقا من مفهوم "أركيولوجيا الثقافة"، ونعني بذلك محاولة تقصي المحدثات العميقة التي جعلت فكرة ما ممكنة في إنتاج ثقافي معين. وذلك عن طريق جمع "قطع أثرية"، ليس بالمفهوم المادي للآثار، وإنما تنتمي للإنتاحات الفكرية والثقافية، تبدو لأول وهلة متباعدة ولا تاريخية وقادرة للقيمة التسجيلية، لا تواصل بينها، لا قيمة لها من منظور الإيديولوجية المهيمنة في الوضع الثقافي الراهن. غير أنها شيء من التبصر يمكن أن تكشف عن تلاحمات فكرية لها دلالتها على التواصل الثقافي ما بين الأجيال والمراحل التاريخية مهما باعد بينها الزمن.

انطلاقا من هذه الرؤية الأركيولوجية لنص الثقافة الجزائرية يمكن على سبيل المثال أن نجد تجسيدا تصویریاً أسطوريًا وخرافيًا وملحميًا ثم روائيًا لмотيف "الجميلة والوحش" المعروف في الثقافة العالمية. فيصبح بذلك مكونا من مكونات نص الثقافة الجزائرية. وبشيء من التوضيح يمكن القول إن هذا الموتيف يمثل مرتكزا سرديًا يحدد قصة الآثار الآتية:

- أسطورة "النفس والعشق" لـ "أبولي دومادور"، والتضمنة في كتابه المشهور "الحمار الذهبى".

- الحكايات الخرافية بالعربى الدارجة وبالقبائلية التي قدّمت قصة الفتاة التي تقع ضحية غواية غول متنكر في هيئة إنسان أو في هيئة أداة سحرية (عصا مزركشة أو جبة راقصة).

- قصص سيرة بني هلال التي تحكي عن علاقة ذياب الهلالي بالجازية.

- رواية محمد ديب "إغفاءات حواء"، والتي تروي قصة عشق وقعت فيها المرأة ضحية غواية شخصية رجل مغاربي أضفت عليه من خلال استيهاماتها صورة ذئبية، فاستذابت بدورها ساعية إلى الانتحاد به.

نجد أنفسنا في هذه الآثار جمِيعاً أمام مواجهة تحدث بين الأنما والأخر، بين عالمين عالم بشري خاضع لقتضيات الحياة الإنسانية العادلة موسوم بالثقافة في مقابل عالم آخر يتجاوزها ويُجسّد نقِيضاً لها هو أقرب إلى الطبيعة التوحشة التي تأبى الترويض وتسلك سلوكاً مبنياً على الغريزة وعلى الرغبات العنيفة المُسلطة. إنها علاقة بين كائنين، أحدهما يُجسّد الأنوثة والجمال والضعف البشري والحساسية المفرطة وسعة المخيلة والاندماج في نظام مجتمعي ضاغط ومحدّد للحرية، بينما يُجسّد الثاني الذكورة الباعة على الفتنة والمُسلطة على النفس والعقل والمصرة على تملك الآخر بجميع الوسائل والمُندمجة في الطبيعة والمُتسلكة لقدرات سحرية تفوق القدرة البشرية العادلة والمتمنعة بحرية لا تحدّد والمتميزة بسلوك فردي تتَحَكَّم فيه الغريزة والرغبات الأكثَر عنفاً وعنفواناً.

تروي أسطورة "النفس والعشق" الواردة في كتاب «الحمار التهبي»² قصة تسلط "كيوبيد" إله الحب الشاب الجميل المراهق الترقق والتهاور على "بسيري" الفتاة الجميلة التي أحبها أهل مملكتها وعبدوها، مما أغضب "فينوس" (والدة كيوبيد) إلهة الجمال، فسلطت عليها ولدها إله الحب الذي اشتهر بتهاوره ونزقه وطيسه. غير أنَّ هذا الإله وقع في عشق هذه المرأة المنتمية للعالم البشري والمُندمجة في نظام أسريٍّ والمرتبطة بعلاقات يحكمها نظام اجتماعي صارم، فتزوجها سراً وحملها إلى عالمه. وبعد تطورات متدرجة تأسست على التناقض بين عالمين، عالم البشر وعالم الآلهة، عالم الجماعة البشرية الخاضعة لنظام من القيم وال العلاقات الأسرية وعالم الآلهة ذي الطبيعة الفردية والمُسلطة، انتهت المواجهة المبنية على عدم التكافؤ إلى احتياز "بسيري" لاختبارات العبور إلى عالم الآلهة، ولما تم تأهيلها أدمجت في عالم الآلهة وأصبحت زوجة شرعية "لكيوبيد" وأنجبا طفلة حملت اسم "النَّة". تمثل علاقة الرغبة الجامحة المبنية على الغواية السمة الأساسية التي

طبعت العلاقة بين الطرفين المواجهين. وهي علاقة بدا تحقيقها مستحيلاً بسبب تناقض طبيعة كل من الكائنين المعنيين، وقد حصل التوحد في النهاية بعد إلغاء شروط أحد العالمين (وهو هنا العالم البشري) وإخضاعه لشروط العالم الآخر.

تروي مجموعة من الروايات التي تحمل عناوين مختلفة مثل : "عصفور المطر"، "عصفور الرياح"، "الورد المنير"³، وهي أسماء للشخصية الأساسية في الحكاية النامية للعالم الآخر نفس العلاقة تقريباً، إذ يتم افتتاحها بتقديم شابة جميلة مندرجة في نظام أسري وخاضعة لجموعة من التحديات التحريمية ذات الطبيعة الثقافية النابعة من النظام الاجتماعي الذي تنتهي إليه، يحيطها أهلها بالرعاية، تتعرض بدورها للغواية عن طريق أدوات سحرية جميلة تبعث الفتنة في النفس (نفس البطلة)، فتنساق الفتاة نحو الغواية وتقبل الارتباط الرواهي بكائن بدا لأول وهلة في قناع بشري، ويتبين فيما بعد أنه ينتمي في حقيقة الأمر لعالم الأغوال، فيحملها معه إلى عالمه وي الخضوع لإرادته، غير أنها بفعل تدخل أفراد أسرتها وبتأثير من القيم الثقافية ذات الطبيعة الاجتماعية تجد نفسها مجبرة على المواجهة وعلى احتياز اختبارات العبور بغرض الالتحاق المناسب بالعالم الآخر. ويتم هنا أيضاً إلغاء قيم العالم البشري (قيم الجماعة التي تنتهي إليها البطلة الضحية) لتحول محلها شروط العالم الآخر.

تلقي الحكايات الخرافية المشار إليها هنا والمثبتة في ملحق هذه الدراسة برواية "إغفاءات حواء" في الموتيف الأساسي المتعلق بالواجهة بين كائنين في ظل الشروط المشار إليها أعلاه القائمة على فكرة تناقض تحديد حرية الفرد بفعل العلاقات الاجتماعية والقيم النابعة منها مع الرغبة الدفينة المتأججة في الحرية المطلقة التي تجد مثالها في عالم القوة الطبيعية الغريزية ذات التوجه الفردي الرافضة للخضوع لنظام الجماعة. إلى جانب ذلك تشترك الحكايات الخرافية المشار إليها مع الرواية في رمزيتها المتعلقة مثلاً بالنار والدم والأرض، إلخ. باعتبارها صوراً

دالة على طبيعة الصراع القائم بين العالمين الفردي والجمعي. وهو أمر قد لا تسمح لنا حدود هذا المقال بالتفصيل فيه، ويحتاج إلى مقارنة متأتية بين جميع التصورات العنية هنا بالتعليق.

تروي قصص بني هلال النحدرة من السيرة الهلالية ذات الطبيعة الملحمية والشائع تداولها في الجزائر خلال القرون الماضية عن علاقة عشق بين ذياب بن غانم الهلالي والجازية الهلالية أخت الأمراء، وهي علاقة تميزت بازدواج في الواقف المؤدية إلى التقارب بينهما. ذلك أن السيرة تجعل ذيابا ينتمي لعشيرة مستضيفة (عشيرة زغبة) لا قيمة لها بين القبائل الهلالية مما يقف حائلا دون زواج الجازية بنت أمير بني هلال منه. أضف إلى ذلك أن الجازية تم تزويجها لملك زواجه نفعيا مقابل حصول أهلها على العجوب التي أنقذتهم من الهلاك في سنوات المجاعة. لقد قدّمت الروايات المختلفة شخصية الجازية الهلالية على أنها مثال الجمال ومحط رعاية المجتمع الهلالي، تصدر عن مواقف تراعي قبل كل شيء مصلحة القبيلة وقيمها الاجتماعية والسياسية، وقد أصبحت في نهاية الأمر بعد قتل أخواتها أم الأيتام فتكفلت بتربيتهم لتعدهم للإمارة فيما بعد (حسب نص السيرة الأصلية المكتوبة). أما ذياب الهلالي فقد قدّمته السيرة على أنه ذو طبيعة متوجهة لا يرضى إلا بالقفار مكانا للإقامة شبه الدائمة، يتميز بالليل إلى العنف وبالحيلة وبالمظهر المتواضع مقابل القدرة القتالية العالية والإصرار على تحقيق رغباته الفردية، ومعاداة القيم الجمعية المفروضة من طرف شيخ قبيلة بني هلال، وقد انتهى في السيرة الأم إلى محاربة حكام بني هلال والقضاء عليهم جميرا. تسجل قصص بني هلال المتداولة في بعض مناطقالجزائر لحظات التقارب بين الجازية وذياب فتذكر مثلا واقعة زواجهما، ثم ما حصل بينهما ليلة الدخالة بسبب تنازع طبعييهما، حيث تحدت الجازية ذيابا وعرضته لاختبار قائم على لعبة الألغاز ... ولما فشل في حلها نقضت عهد الزواج. كما تذكر نفس القصص أن ذيابا ساعده الجازية على مغادرة فراش زوجها حاكم

يمكنهما أن يظلا كذلك إلى الأبد. واثناء ذلك هي، الحيوان، تتقى نحوك مستوره بخمار عروسة. تتقى، تلتحم بصدرك لتشبع نهما بشريًا. يجب أن لا يقدم أي شخص على أخذها. لا يمكن ذلك، لا يمكن ذلك، لا يمكن ذلك. مهما كان الثمن. "لكن هو، صلح-الذئب، هل يعرف ذلك؟"
(ص 68 من الرواية).⁵

لقد قدم هذا النص بخط مائل ما عدا السطر الأخير العلم بعلامتي تنصيص لإبراز خصوصيته وطبيعة مرجعيته الحلمية أو بالأحرى الأسطورية في النص الروائي مندرجًا في سياق تيار وعي ببطل الرواية "صلح".

ثانياً : في التفاعلات التصيّة

نسجل أيضًا في دائرة التعالقات التصيّة ما يشير إليه النص المستشهد به هنا من مقابلة بين الشرط البشري والشرط الحيواني، وهي مقابلة حكمت التحوّلات السردية، على المستويين السطحي والعميق في القصة ولها دلالاتها الثقافية الرمزية بخصوص المسألة الحضارية المطروحة في الرواية وال المتعلقة بالصدام الحاصل بين الثقافتين الغاربيتين من جهة والأوروبيتين من جهة ثانية. وهو ما يستدعي موقفًا تأويليًا ارتئيًاه وطرحناه في مقالتنا المشار إليه أعلاه أثناء ملتقى النص بجامعة الجزائر، ومفاده أن علاقة الأنماط بالآخر في رواية "إغفاءات حواء" تميزت بالإلغاء المتبادل حيث نجد أن المرأة صنعت صورة للرجل مستوحاة من استيهاماتها ومن تصوّراتها الذاتية لجوهره، وهي تصوّرات ارتكزت على معطيات شارك في توفيرها الرجل نفسه من خلال استيهاماته الخاصة ومحاولته للكشف عن جذوره، فرأى فيه وحشاً ذئبيًا، فألغى بذلك وجودها الإنساني، وفي ذلك ما يمكن أن يعبر عن عبئية الوجود البشري وأزمة مواصلة العيش في ظلّ حبّ يجد فيه الإنسان الخلاص لكنه مؤذ إلى التهلكة. لا يعبر ذلك عن التنافي الحاصل في علاقة الحضارة العربية الإسلامية

الغاربية بصفة عامة مع الحضارة الأوروبية الحديثة بميراثها الاستعماري الموسوم بالتعالي وبالرؤى الغرائبية والعجبية في نفس الوقت للإنسان الغربي⁶. وأخيراً تجدر الإشارة إلى أن تطور مبحث التناص في السنوات الأخيرة كفرع من فروع الدراسات الأدبية يوفر وسائل منهجية على قدر كبير من الأهمية بالنسبة لموضوعنا، لكونه يسعى إلى الكشف عن النص الأدبي باعتباره جهازاً عبر لساني يتخالل الكلام التواصلي (اللغة الطبيعية)، فيتعدد إنتاجيه تعتمد على الهدم والبناء من خلال تلاقي التصوص السابقة في النص الأدّق، ومن خلال تفاعل ممارسات ثقافية شتى نابعة من السياق السوسيوثقافي والتاريخي والإيديولوجي، وغير حوارية فصل باختين فيها القول. ويمكن استثمارها بهدف توسيع دراسة نصوص محمد ديب في ثرائها الرمزي ومرجعياتها الثقافية المتنوعة وفي تحويلها لما هو ميراث للجامعة الإثنية إلى نشاط للمخيّلة الفردية.

الحالات

- 1- Naget Khadda, *L'oeuvre romanesque de Mohamed Dib, propositions pour l'analyse de deux romans*. OPU, Alger, 1983, p.p.319-320.
- 2- ينظر: لوكيوس ابوليوس، *الحمار النهيبي* أول رواية في تاريخ الإنسانية، ترجمة : أبو العيد دودو، منشورات الاختلاف، الجزائر 2001، ص-ص، 127-167.
- 3- ينظر ملحق رسالة ماجستير عنوانها : "العلاقات الأسرية في الحكاية الشعبية القبائلية"، من إعداد آيت قاضي ذهبية، إشراف عبد الحميد بورابي، نوقشت بجامعة تبزي وزو، 1999. مخطوط.
- 4- أعمال الملتقى الأول الدولي حول سيرةبني هلال، الجزائر، من 20 إلى 23 ماي 1990، المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ والأنثروبولوجيا والتاريخ. ص، 63.
- ملاحظة : اعتمدت في ملاحظاتي عن قصص السيرة الهلالية على ثلاث روايات جمعتها من بسكرة ومنطقة القبائل وأخرى جمعها باحثون من سطيف والمسيلة وكذا السيرة المدونة المطبوعة في الشرق.
- 5- Mohamed Dib, *Le sommeil d'Eve*, Sindbad, Paris 1989.
- 6- ينظر مقالي "إنتاجية النص، دراسة في إرثيولوجية الثقافة الجزائرية من خلال ثلاثة انماط نصية أدبية، الأسطورة/اللحمة/الرواية"، مجلة اللغة والأدب، معهد اللغة العربية وأدابها، جامعة الجزائر، العدد 12، ديسمبر 1997، ص-ص، 192-201.

